الصراع وحركية التاريخ

بقلم السعيد المعتصم

منذ أن ظهرت العلوم الاجتماعية الحديثة التي تناولت العلاقات الاجتماعية كما هي لا كما ينبغي أن تكون، بات في حكم البديهي أن علم السياسة باعتباره علما من العلوم الاجتماعية بامتياز إنما يتناول العلاقات الإنسانية في شقها التنظيمي القائم على رصد ظاهرة السلطة وشبكة العلائق القائمة بين الحاكم والمحكوم ومختلف الآليات التي تجعل من مجتمع ما كيانا تنظيميا قائم الذات تحكمه قوانين معينة ليست بالضرورة قواعد الأخلاق ولا هي مثاليات المدينة الفاضلة.

ومن هذا المنظور، انبرى علماء السياسة لدراسة ظاهرة السلطة انطلاقا من فهم القوى الاجتماعية التي تنتظم في بنيان اجتماعي معين وتقيم فيما بينها علاقات ليست بالضرورة علاقات وئام وانسجام، بل هي علاقات تنافس وسباق محموم أحيانا للوصول إلى مراكز اتخاذ القرار .**إنها علاقات صراع**.

وانطلاقا من هذا المعطى الأساسي، وظفت فكرة ' الصراع ' التي هي ظاهرة اجتماعية طبيعية تفرز القوى المتنافسة على الموارد المحدودة، سواء كانت هذه الموارد مادية أو معنوية .والصراع هي آلية الحراك الاجتماعي لكل مجتمع، بل هو محرك التاريخ بالمفهوم الماركسي للكلمة .وليس الصراع في حد ذاته قيمة مذمومة ولا محمودة .بل هو ظاهرة موضوعية قائمة الذات تطبع كل العلاقات الاجتماعية، سواء كانت علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية .وبه تنتقل المجتمعات من طور إلى طور، ومن حقبة إلى حقبة .وبه تتقدم البشرية، إذ لا يعقل أن يتطور المجتمع البشري بدون هذه الحركية العلائقية القائمة على التضاد.

وما يقال عن المجتمعات البشرية المحلية، ينسحب أيضا على المجتمع الدولي على مستوى ماكرو اجتماعي .وهكذا تفهم العلاقات الدولية سواء عند المنظرين الكلاسيكيين المؤمنين بالنظرية الهوبزية لحالة الطبيعة أو المحللين الماركسيين القائلين بالصراع الطبقي على المستوى العالمي .أو لم يقل لينين أن الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية.

وعلى ضوء ما سبق، لا يسع المرء إلا يندهش لتعابير من قبيل ' إنهاء الصراع ' و 'منع الصراع ' و 'المجتمعات الخارجة من الصراع ' و 'استراتيجيات ما بعد انتهاء الصراع ' وغيرها من التعابير التي تنم فعلا عن ' فهم ' خاص للتاريخ .وإنه لعمري فهم يهدر كل المفاهيم الأساسية التي قامت عليها مدارس التحليل الاجتماعي على اختلاف مشاربها.

إنك لا تنهي الصراع، ولكن تسعى إلى إنهاء النزاع .أما الصراع فهو النبض الدال على حيوية الجسم الاجتماعي .

والأمم المتحدة كآلية لتدبير الممكن في حدود الأمر القائم، ليست مطالبة بإنهاء الصراع بقدرة قادر، بل كل ما تسعى إليه هو منع النزاع، وإذا نشب – وكثيرا ما يفعل – فإنها تسعى إلى احتوائه، وتلتمس تسويته في إطار آلية الميثاق.